آل بكتكين - مظفر الدين كوكبري

أو

امارة اربل في عهدهم

(٥٢٢ هـ - ٦٣٠ هـ)

— ٥ —

من ورد اربل من العلماء المشاهير

لا يحصى العلماء الذين وردوا اربل وان ابن المستوفي خص تاريخه بمن ورد اليها من أرباب المواهب وسماه (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأماثل . وانما نذكر من اشتهر بورود اكثر وعرف بالوصول اليها ، والاتصال بعلمائها وأدبائها . ولو كان عندنا تاريخ ابن المستوفي لوقفنا على الكثيرين من هؤلاء النوابغ . والظاهر أنه استقصى أهل المعرفة والكمال .

وهنا نذكر بعض المعروفين فنقول :

١ — أبو الخطاب عمر بن دحية الكلبي ، وهذا بسطت ترجمته في مجلة المجمع الغراء [١] .

٢ — ابن الدهان . ذكره ابن خلكان وهو من أهل بغداد . عدّه ابن المستوفي في زمرة الواردين الى اربل . وهو مؤرخ . وله أوضاع في الجداول وغيرها من الفرائض وصنّف غريب الحديث في ١٦ مجلداً لطافاً [٢] .

٣ — البوازيجي الشاعر :

هو الشرف عبد الرحمن بن ابي الحسن بن عيسى بن علي بن يعرب البوازيجي الشاعر . كان قد وصل الى اربل في سنة ٦٢٨ هـ . وكان ابن المستوفي وزيراً .

(١) ج ١٩ ص ٢٢١ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فسيّر له مشلوماً على يد الكمال بن الشعار الموصلي صاحب التاريخ . فقال له الصاحب يسلّم عليك ويقول لك انفق الساعة هذا حتى يجهز لك شيئاً يصلح لك . فتوهم ذلك الشاعر ان يكون الكمال قد قرض القطعة من الدينار ، وان شرف الدين ما سيّره الا كاملاً وقصد استعلام الحال من جهة شرف الدين فكتب اليه :

يا أيها المولى الوزير ومن به في الجود حقاً تضرب الأمثال
أرسلت بدر التم عند كماله حسناً فوافى العبد وهو هلال
ما ناله النقصان الا انه بلغ الكمال كذلك الآمال

فأعجب شرف الدين بهذا المعنى وحسن الاتفاق وأجاز الشاعر وأحسن اليه [١] .

٤ — ياقوت الرومي :

هو صاحب معجم البلدان ، وردت في مادة (اربل) مشاهداته للبلد ، وذكر ابن المستوفي وأثنى عليه ، ورجحه على غيره بل عدّه الوحيد في كمال فضله ... ولعله لم يجعل للآخرين قيمة لأنه لم يعتبرهم في عياره من الفضل والمكانة العلمية والأدبية . والا فقد جاء البوازيجي الى اربل فكان فيها ابن المستوفي ، والكمال ابن الشعار ...

٥ — الفرضي البغدادي :

محمد بن محمد بن ابي حنيفة الفرضي البغدادي ، أستاذ ابن المستوفي ، أقام باربل مدة . مات بالقاهرة سنة ٦٠٢ هـ [٢] .

٦ — الكمال ابن الشعار :

هو الكمال ابن الشعار من الأدباء الأفاضل ، والمؤرخين المعروفين . كان في خدمة ابن المستوفي . ورد ذكره هناك في ترجمته [٣] . وهو صاحب عقود الجمان في شعراء الزمان في عشر مجلدات كبار رأيت منها ثماني مجلدات باستانبول .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٣٣ (٢) الوافي بالوفيات ج ١ ص ١٢١ نسخة خطية .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٦٣٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويعدّ من الواردين اربل ، والمقيمين بها ، ويترجم كثيرين من الاربليين وليس في الوسع الآن النقل منه . كان ينقل من تاريخ ابن المستوفي . وربما نقل جميع ما هنالك من أهل الأدب وزاد . ورد ذكره في ابن خلكان في ترجمة ابن المستوفي . وبيّن انه من أصحابه ، وذكر كتابه عقود الجمان ونقل منه بعض الأشعار[1] .

ويعدّ من رجال اربل ، أو مؤرخيهم للصلة المشهورة . ولم يتعين لنا تاريخ وروده ، ومقدار خدمته في اربل . وكل ما علمناه انه توفي سنة ٦٠٤ هـ ، وذكر في ترجمة البوازيجي .

٦ - نوشروان البغدادي :

ويعرف بـ (شيطان العراق) . كان ضريراً اشتهر شعره فيها سالكاً طريق الهزل . راكباً سنن الفكاهة ، مورداً ألفاظ البغداديين والاكراد ، ثم أقلع عن ذلك ورجع عنه ، ومدح اربل .

قال ياقوت في معجم البلدان :

« وانا أورد مختار كلمته ها هنا قصداً لترويح الأرواح ، والاحماض بنوع ظريف من المزاح ... » اهـ[2]

وأورد مختارات ما جاء في القصيدتين . وكلتا في ذلك تدل على أمر آخر وهو أن الأقوام كانت مختلطة فيها ، واللغات متداخلة فصح ماقال ، وعدوله لا يغير الموضوع إلا ان العلم والأدب غيّر الوجهة ، فبرز أكابر في العلم والأدب . وذكر من رجال المدينة (الرئيس مجد الدين داود بن محمد) واعتذر له من هجائه لاربل ...

٧ — ابو المعالي اسعد بن علي الحظيري :

عمل لمجاهد الدين ابي منصور قايماز أيام نيابته باربل (كتاب الاعجاز في حلّ الأحاجي والألغاز) ، حمله اليه وكتبه برسمه ، وأقام عنده مدة ، فاشتاق الى أهله بالحظيرة فقال :

---

(١) كذا : ابن خلكان ج ٣ ص ٥٠٢ (٢) معجم البلدان ج ١ ص ١٧٤ طبعة مصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الا من لصبّ قليل العزاء غريب يحنّ الى المنزل
ينادي باربل أحبابه وانى الحظيرة من اربل (١)

الحالة الاجتماعية في اربل

تعين وضع اربل الجغرافي في مختلف العصور كتب البلدان ، وكتب التاريخ ، وقد جاءت بيانات مهمة موضحة عنها ، مرّ بعض النقل عن معجم البلدان ، وتصادف أيامه آخر أيام مظفر الدين كوكبري . أما ما قبل ذلك فمن أهم ما جاء عنها عن ابن سعيد انها مدينة محدثة ، وهي قاعدة بلاد شهرزور . وقال في المشترك : مدينة بين الزابين ومنها الى الموصل يومان خفيفان . قال في تقويم البلدان وعن بعض أهلها اربل مدينة كبيرة وقد خرب غالبها ... ولم يزد سباهي زاده على ما نقل . وما ذكره ابو الفداء كان بعد انقراض امارتها بنحو مائة سنة .

ولا يهمنا نقل النصوص الخاصة بالبلدة ، وانما العبرة باللواء ، وما يمدّ هذه الامارة ، فاربل مصغرة العراق تحوي المنطقة بين الزابين ويقال لها « صوران » ، ووررت في بعض الآثار « صهران » ، وفيها الجبال المنبتة ، والأراضي الزراعية ، يحيط بها الزابان الأعلى والأدنى ودجلة والجبال ، وتعتبر كالسور لها ، بل سداً منيعاً ، وحارساً مكيناً ، وقراها لا تحصى كثرة .

ولا يكفي أن نقول انها كاملة في مناعتها ، فالقوة الفائقة لا تقاوم ، ولكنها تدافع لأمد ، حتى لقد تمكنت أن تقف في وجه كثيرين ، وقد سهل ذلك قلة مياهها ، وبعد الزابات عنها ، فتعدّ حصناً طبيعياً آخر اذا طال حصارها يضاف الى ذلك ما فيها من سور وقلعة .

جعلها الوضع الجغرافي في وسط اللواء لأسباب اقتصادية ، فهي جامعة الخيرات ، وان وجودها في المكان الذي هي فيه يسهل الحصول على منتوجاتها ، والقرب من مرافقها ، سهلها عظيم في زراعته ، تزرع جميع مواطنها حتى وهادها ، ففي

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أوقات الزرع لا يشاهد سوى الأراضي المزروعة ، مياهها متدفقة ، وأمطارها غزيرة ، ونعمها وافرة . تأتيها الأثمار والفواكه من الجبال المجاورة . جمعت ما لم يجمع في غيرها وقامت بادارة امارة مدة في خلالها بذل العلم لكل طالب ، حتى صارت تضارع المدن الكبيرة في ثروتها وفي رجالها وفي حسن ادارتها . وجندها من خير الجنود قوة وشجاعة ، أعجزت الفاتحين الكثيرين ، وقهرت العتاة الجبارين أهلها ذوو طاعة واذعان ، لا يتخلفون عن أمر ، ولم يعصوا في حياتهم لما كانت بينهم وبين الامارة من الفة ، وهم أصحاب اخلاق عالية فلم يروا ارهاقاً أو اجحافاً أيضاً ، استخدمت الامارة رؤساء العشائر الذين ضبطوا الادارة ، فلم يروا ما يعبث بالعزة والكرامة ، ولم يجد الأفراد الا رأفة وعدلاً . فكان التفاهم والعدل ورعاية الرؤساء على أتم حال . ومن ملك جيشاً كهؤلاء أمن الغوائل ، ومن تمكن من حسن الادارة اكتسب الخير والنفع والعميم . أو ملك بهم ما ملكه الأتابكة .

ويعزى سبب الخلل في الادارة الى ضعف هذه القوة وعدم المبالاة في سيرها بالحق ، ودعا التحكم ان تنفصل عن الأتابكة ، وان يقوى سلطان الدولة الأيوبية بالاتفاق معهم والاتصال بهم ، والتعويل عليهم في تهديد الأتابكة ، فاستخدموا للصالح العام بل لولا هذه الامارة لما أذعنت الأتابكة لآل أيوب .

ويفسر ظهور هذه الامارة (امارة آل بكتكين) بحسن ادارة هذه البلدة وما يتصل بها من عشائر وقرى والقبض على قيادها حتى أذعنت بالطاعة ، وانما كانت قد ديرت مواهبهم الحالة التي كان عليها الأمراء ، وأحسنت الادارة ، فلم يداخلها سوء ، ولم تعرف بمكروه ، بل اشتهرت بالسمعة المقبولة ، وعرفت بالأخلاق الفاضلة . ولذا خذلت الامارات قبلها وبعدها . واذا كانت البلدة قديمة ، فانها لم تبلغ من الشهرة ما بلغتها أيام هذه الامارة ، فلم تشبه من سبقها .

وحالة اربل بعد انقراض هذه الامارة تعين مكانتها في تلك الأيام ، فالعمل لا ينفك عن المدينة أو اللواء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعدها صاحب صبح الأعشى قاعدة بلاد شهرزور ولا شك ان السياسة الرشيدة والادارة القويمة من أعظم العناصر الفعالة التي اكسبتها شهرة سابقاً وخملت في هذه الأيام بل أصابتها الضربة القاسية في أيام المغول ، فدمرت غالبها ، ولم يحدث فيها تجدد من تاريخ القراض آل بكتكين .

لم يتبدل وضعها كثيراً ، يؤيد ذلك الحال المشاهد منها ، فقد تطورت بها الحالات ، ولا تزال على ما حكاه الجغرافيون في مختلف الأزمان .

وما كانت عظمة المدينة في شاهق قصورها أو أبنيتها الضخمة ، فهذه ظواهر ، وانما تتجلى العظمة في بقعتها الصالحة ، والأنهر الوافرة ، والحالة الزراعية الملائمة ، والجبال الشاهقة ، والأراضي المنبتة وهكذا ففي هذه حياة المدينة ، وعليها قامت اربل .

كانت شهرزور في أيام آل بكتكين من مضافاتها ، وكذا كرخينا (كركوك) .

قال ياقوت : وهي قلعة حصينة ، ومدينة كبيرة ، في فضاء من الأرض واسع بسيط ، ولقلعتها خندق ، وهي في طرف من المدينة ، وسور المدينة ينقطع في نصفها وهي على تلّ عالٍ من التراب عظيم واسع الرأس . وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة . وهي شبيهة بقلعة حلب إلا انها اكبر وأوسع رقعة . وهي بين الزابين . تعدّ من أعمال الموصل ، وبينهما مسيرة يومين .

ولا تزال على وضعها هذا الا أنها لم تكن في ايام ياقوت من أعمال الموصل . وانما تابع الجغرافيين قبله . والا فانها انقطعت من الأتابكة .

* * *

ربض القلعة

وهذه اكتسبت سمعة أيام مظفر الدين كوكبري ، ونالها ما نالها من عمار قال ياقوت : « وفي ربض هذه القلعة في عصرنا هذا مدينة كبيرة عريضة طويلة ، قام بعمارتها ، وبناء سورها ، وعمارة أسواقها ، وقيساريانها الأمير مظفر الدين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كوكبري بن زين الدين كوچك علي ، فأقام بها ، وقامت بمقامه بها لها سوق ، وصار له هيبة ، وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته وكثرة تجربته حتى هابوه ، فاحتفظ بذلك أطرافه ، وقصدها الغرباء ، وقطنها كثير منهم حتى صارت مصراً كبيراً من الأمصار ، وطباع هذا الامير مختلفة متضادة ، فانه كثير الظلم ، عسوف بالرعية ، راغب في أخذ الأموال من غير وجهها . وهو مع ذلك مفضال على الفقراء ، كثير الصدقات على الغرباء ، يسيّر الأموال الجمة الوافرة يستفك بها الأسارى من أيدي الكفار ... ومع سعة هذه المدينة فبنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن . واكثر أهلها أكراد قد استعربوا ، وجميع رساتيقها وفلاحيها وما ينضاف اليها أكراد . وينضم الى ولايتها عدة قلاع . وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل . وليس حولها بستان ، ولا فيها نهر جار على وجه الأرض . واكثر زروعها على القنّي المستنبطة تحت الأرض . وشربهم من آبارهم العذبة الطيبة المريئة التي لا فرق بين مائها وماء دجلة في العذوبة والخفة . وفواكهها تجلب من جبال تجاورها » اهـ [1] .

مشاهدات صاحب معجم البلدان هذه قيمة ومهمة جداً في بيان وصفها . الا ان قوله لم يجد فيها من أهل الفضل سوى ابن المستوفي يدلّ على ضعف في التحقيق . وان ياقوت لم يبصر دقائق الأمور أو ما يحتاج الى خبرة وافية في ادارة أميرها ، فبعد أن نسب اليه أعمالاً جليلة لم يلتفت الى أنه لا يشبه غيره ، وان ما ألصق به من ظلم لعله كان قد نقله من اعداء كوكبري ... والظاهر أنهم التجار وأرباب الأموال ، فيعدون القيام بأمثال هذه مما يضرّ بهم ، فحاولوا التشنيع عليه ، وانه ثقل عليهم . والرجل دوّن ما سمع ، واعتقد بصحة ما قيل .

ومن المهمّ قوله اكثر أهلها اكراد استعربوا . فهذا كان بسبب الثقافة العربية الاسلامية بلا ريب ، وكان من أهمّ ما تعرّض له ياقوت اللغة المختلطة ،

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٧٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما أدت اليه ، وهي اللغة العامية الجارية بين الأهلين والقصائد المنقولة عن (شيطان العراق) تدل على ما قامت به المدارس من خدمة .

ومثلها ما هو شائع في هذه الأيام ويعدّ كنبز بين الكرد والعرب ولا غرض فيه الا تصوير الحالة ، وبيان درجة الاختلاط في اللغة . ومن الصواب الا نلتفت الى جهة النبز بل إلى ازالة النقص ببث روح العلم . وما كتبه ياقوت عن اربل الجديدة (ربض القلعة) كان عن أيامها الأخيرة ، ونسب العمل الى مظفر الدين كوكبري . فعدّها مدينة محدثة باعتبار ما بنى بصورة موسعة جداً وإلاّ فهي موجودة قبل ذلك بمدّة . فكأنها مدينة محدثة ، وان الأصل قد أهمل أو لم يبق منه ما يعدّ قديماً . وبعد وفاة كوكبري أصابتها ضربات عظيمة ، وحدثت فيها وقائع فلّت من غربيها ، وكادت تندثر لولا ان الحالة تقتضي التوسع دائماً فيعمر ما خرب ويعاد ما دمر عند عودة النظام واستقرار الحالة .

مرّ بنا ذكر بعض الحوادث الى انتهاء الدولة العباسية . أما ما جرى بعد ذلك وفي العهد العثماني فقد تقلبت بها الأحوال فصارت تابعة للسليمانية مرة ، ولشهرزور اخرى او لكركوك وهكذا عدّت أحياناً من مضافات الموصل مما زاد أو نقص في نطاق نفوذها حسب ما كانت تقتضيه السياسة وادارة المملكة .

وفي مواطن عديدة من هذا اللواء يسكن بعض القبائل العربية ، وفي اربل والتون كوبري (القنطرة) يسكن بعض الترك ، وفي بعض القرى ايضاً . وغالب أسماء بعض المواطن تركية والظاهر ان الزيادة جاءتهم أيام المغول من أذربيجان والاتصال قريب . ومن قبائلها التركية المعروفة (صاره لو) . وقرى عديدة .

ومن عشائر الكرد المعروفة :

١ — خوشناو .

٢ — ديزه يى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ — گردي ٠
٤ — بلباس ٠
٥ — بيشدر ٠
٦ — آكو ٠
٧ — بالكي ٠
٨ — سيان ٠
٩ — زراري ٠
١٠ — بالك ٠
١١ — سالهي ٠

هذا ٠ وقد تكلمنا في (كتاب عشائر الكرد) في العراق بصورة موسعة ، ومن بين هذه القبائل ما يطول القول فيه ٠ فاكتفي بالإشارة ٠

خاتمة القول

وهنا ننهي كلامنا بأن هذه الامارة من أقطاع أتابكة الموصل سنة ٥٢٢ هـ ، فرأت منهم جفاء فمالت الى آل أيوب سنة ٥٨٠ هـ ، ودامت على ولاء هؤلاء حتى سنة ٦٢٧ هـ ، وفي أول المحرم سنة ٦٢٨ هـ انقادت للخلافة العباسية حتى انقرضت سنة ٦٣٠ هـ ، فكانت في سياستها الخارجية ، وادارتها الداخلية وحمايتها للثقافة ، وقيامها بأعمال البر قدوة ٠ انتجت جملة صالحة من جملة العلم وأرباب القلم ، فخلدت أجمل الذكريات ، والوثائق التاريخية في مطالبها كثيرة لا محل لاستقصائها وكل ما ظهرت النصوص اكثر تجلت عظمتها ٠ والأمل أن تتكامل المطالب ٠

(بغداد) عباس العزاوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net